دعاء الأنبياء في القرآن الكريم

دراســـة بلاغيـة

د. فاطمة محمد النجار

قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر – فرع البنات القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ... وبعد،،

فهذه دراسة بلاغية لدعاء الأنبياء في القرآن الكريم، وقد قدمت من قبل بحث في بلاغة الدعاء في القرآن الكريم، ولم أتعرض فيه لدعاء الأنبياء، ورأيت أن من الأفضل أن أخصّهم ببحث مستقل، لما لهم من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة.

والبحث يوضح أحوال الأنبياء الصالحين، وما وقع لهم، ومن الاستعانة برب العالمين، واستجابته تعالىٰ لدعائهم، وذلك من خلال دراسة الدعاء دراسة بلاغية، للوقوف علىٰ أسراره في القرآن الكريم.

وقد جمعت في هذا البحث الأدعية القرآنية للأنبياء، التي اشتملت علىٰ عبارات الثناء والتعظيم والتمجيد لله تبارك وتعالىٰ، وذكرت أيضًا طائفة من دعاء الملائكة للمؤمنين.

وقد كان منهجي في هذا البحث هو تفسير الآية، وشرح كلماتها، ثم تحليلها بلاغيًا، لندرك بلاغة النظم القرآني، وعجيب تأليفه، وروائع صوره، وسموّه في البلاغة.

وقد تم البحث علىٰ حسب ترتيب الأنبياء، بدأت أولاً بدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وختمت بدعاء سيدنا محمد **صلى الله عليه وسلم** وقد جاءت الدراسة في عشرة موضوعات، ثم جاءت الخاتمة تحمل أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأسأل لله تعالىٰ أن ينفع بهذه الدراسة، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

الدعاء معناه: استدعاء العبد ربه – عز وجل – العناية، واستمداده إياه المعونة.

وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه(١).

والثناء على الله عز وجل من أسباب استجابة الدعاء، إذا استفتح به الإنسان دعاءه، وكذلك الإقرار بالذنب، والاعتراف بالخطيئة والتقصير، والتضرع والتذلل، وإظهار حاجة العبد إلى ربه، وفاقته إليه، وإظهار غني الرب وفقر العبد، وعجزه عن تدبير أموره، ومدح الرب سبحانه بما هو أهله.

ونتأمل قول موسى عليه السلام في دعائه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وقول يونس عليه السلام في دعائه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقول أبينا آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ودعوة يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، فقد جمعت هذه الدعوة: الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، وطلب الوفاة على الإسلام، ومرافقة الصالحين.

---

(١) انظر: شأن الدعاء للإمام الخطابي ٤.

قال ابن القيم – رحمه الله -: «فمن أراد الله به خيرًا، فتح له باب الذلّ والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه، وإحسانه، ورحمته، وجوده، وبرّه، وغناه، وحمده»[1].

(١) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية ١٦.

?عـا??لأنبيا?

١- ?عا? نو ?عليه السلام:

قال تعالىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

أي واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين(١)، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فاستجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين – ركّاب السفينة – من الطوفان والغرق الذي كان كربًا وغمًا شديدًا يكاد يأخذ بالأنفاس(٢).

وبناء ﴿قَبْلُ﴾ على الضم يدل على مضاف إليه مقدر، أي من قبل هؤلاء، أي قبل الأنبياء المذكورين، وفائدة ذكر هذه القبلية التنبيه على أن نصر الله أولياءه سنته المرادة له، تعريضًا بالتهديد للمشركين المعاندين(٣).

والكرب: الغم الشديد(٤). والكرب العظيم: هو الطوفان، والكرب: شدة حزن النفس بسبب خوف أو حزن(٥).

لِمَ وصف الكرب بالعظيم؟

وجه كون الطوفان كربًا عظيمًا، أنه تَهُولُ الناس عند ابتدائه، وعند مَدِّهِ، ولا يزال لاحقًا بمواقع هروبهم حتى يعمهم، فيبقوا زمنًا يذوقون آلام الخوف فالغرق، وهم يغرقون ويطوفون حتى يموتوا بانحباس النفس، وفي ذلك

---

(١) انظر: آية ٤٨-٧٥ سورة الأنبياء.
(٢) صفوة التفاسير ٢٦٩/١٧، انظر: مفاتيح الغيب ١٦٢/٢٢.
(٣) التحرير والتنوير ١١٣/١٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٧٨/٦.
(٥) التحرير والتنوير ١١٣/١٧.

كله كرب متكرر، فلذلك وُصِفَ بالعظيم[1]، وقوله: ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ على وزن (فعيل) للمبالغة في شدة هذا الكرب.

* * * * *

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨-٢٩].

أمره الله بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له، وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها، منزلاً يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسئلته، وهو قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾[2].

والسؤال هنا: لماذا لم يقل: فقولوا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ لأنه في معنى: فإذا استويتم؟ والجواب: «لأنه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي»[3].

وإطلاق الاستواء على الاستقرار في داخل السفينة مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق، وإلا فحقيقة الاستقرار في الفلك أنه دخول.

لماذا أتى بحرف الاستعلاء (على) دون حرف الظرفية؟؛ لأنه الذي يتعدىٰ به معنى الاعتلاء، إيذانًا بالتمكن من الفلك فهو ترشيح للمجاز[4].

* * * * *

(١) المرجع السابق ١١٣/١٧.
(٢) انظر: الكشاف ١٤٥/٣، تفسير أبي السعود ١٣٢/٦ بتصرف.
(٣) المرجع السابق ١٤٥/٣ بتصرف، تفسير أبي السعود ١٣٢/٦ بتصرف.
(٤) التحرير والتنوير ٤٧/١٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٦-٢٨]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ عطف على ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، أعقبه بالدعاء عليهم بالإهلاك والاستئصال بأن لا يبقى منهم أحدًا، أي لا تبق منهم أحدًا على الأرض(١).

و﴿دَيَّارًا﴾: اسم مخصوص بالوقوع في النفي يعمُّ كل إنسان، وهو اسم بوزن فَيْعَالٍ مُشْتَقٌّ من اسم الدار(٢)، ومعنى دَيَّار: من يَحُلّ بدار القوم كناية عن إنسان(٣).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه(٤)، وهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون.

والفاجر: المتصف بالفجور، وهو العمل الشديد الفساد. والكفار: مبالغة في الموصوف بالكفر، أي إلا من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد(٥).

وجاء قوله ﴿كَفَّارًا﴾ على وزن فَعَّال للمبالغة في وصفهم بالكفر.

وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، جعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته، فابتدأ بنفسه، ثم بأقرب الناس به وهما والديه؛ لأنهما أولى وأحق بدعائه، ثم عمّ أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوهم والمؤمنات من أزواجهم وعبر عنهم بمن

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٩.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤١/٩، انظر: الكشاف ٤٩٧/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٢١٣/٢٩.
(٤) الكشاف ٤٩٧/٤.
(٥) التحرير والتنوير ٢١٤/٢٩.

دخل بيته، كناية عن سكناهم معه، فالمراد بقوله: دخل بيتي دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم.

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي هلاكًا ودمارًا، فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية(١)، والتبار: الهلاك والخسار، فهو تخصيص للظالمين من قومه(٢).

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمهم بالدعاء إثر ما خص به من يتصل به نسبًا ودينًا(٣).

ومن الإطناب بذكر العام بعد الخاص قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، فطلب الغفران له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنًا يدخل في لفظي المؤمنين والمؤمنات لدلالتهما على العموم، فقد ذكر الخاص مرتين، مرة متفردًا، ومرة ضمن المؤمنين والمؤمنات وذلك للعناية به.

٢- ?عا?? بر?هيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

والمراد من الآية دعاء إبراهيم للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إلى مكة؛ لأنها بلد لا زرع ولا غرس فيه(٤).

و﴿ٱجْعَلْ﴾ لفظه الأمر، وهي في حق الله تعالى رغبة ودعاء(٥)ء، فهو أسلوب إنشائي أمر الغرض منه الدعاء.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٦٥٩/٣٠، التحرير والتنوير ٢١٥/٢٩.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤١/٩، التحرير والتنوير ٢١٥/٢٩.
(٣) تفسير أبي السعود ٤١/٩.
(٤) مفاتيح الغيب ٤٠٩/٤.
(٥) تفسير ابن عطية ٢٠٩/١.

وقوله: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن كعيشة راضية، أو أمنا أهله، كليله نائم[1].

وقيل: يحتمل وجهين:

الأول: مأمون فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧] أي مرضية[2]، فقد اسند اسم الفاعل (راضية) إلى ضمير العيشة، والعيشة لا تكون راضية، وإنما هي مُرضية، والذي يرضى صاحبها، فالإسناد مجازي لعلاقة المفعولية (مجاز عقلي)[3].

الثاني: أن يكون المراد أهل البلد كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها، وهو مجاز؛ لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد[4]، والمقصود أهل البلد، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية: وهي تسمية الشيء باسم محله.

وقوله تعالى: ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ جاء على التنكير؛ لأن التنكير يدل على المبالغة، والمعنى اجعله من البلدان الكاملة في الأمن[5].

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ بدل من أهله بدل البعض، يفيد التخصيص[6]، خصهم بالدعاء إظهارًا لشرف الإيمان وإبانةً لخطره واهتمامًا بشأن أهله، ومراعاة لحسن الأدب وفيه ترغيب لقومه في الإيمان[7].

وجملة: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ ﴾ جاءت على سنن حكاية الأقوال في المحاورات والأجوبة مفصولة، وضمير قال عائد إلى الله[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ١٥٩/١، الكشاف ١٣٨/١.
(٢) مفاتيح الغيب ٤١٠/٤.
(٣) معاني التراكيب، د/ عبد الفتاح لاشين ٨٢/١.
(٤) مفاتيح الغيب ٤١٠/٤، انظر: صفوة التفاسير ١٥/١.
(٥) مفاتيح الغيب ٤١١/٤.
(٦) انظر الكشاف ١٣٨/١، تفسير أبي السعود ١٥٩/١، والتحرير والتنوير ٧١٥/١، مفاتيح الغيب ٤١٢/٤.
(٧) تفسير أبي السعود ١٥٩/١.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عطف على مفعول فعل محذوف تقديره: أرزق من آمن ومن كفر، وقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ معطوف على ذلك الفعل[٢]، وقيل: الأظهر أنه عطف على جملة: وأرزق أهله باعتبار القيد وهو قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ فيكون قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ مبتدأ وضمن الموصول معنى الشرط فلذلك قرن الخبر بالفاء ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾.

قال ابن عاشور: «أن عطف التلقين في الإنشاء إذا كان صادرًا من الذي خوطب بالإنشاء كان دليلاً على حصول الغرض من الإنشاء والزيادة عليه، ولذلك آل المعنى هنا إلى أن الله تعالىٰ أظهر فضله على إبراهيم بأن يرزق ذريته مؤمنهم وكافرهم، أو أظهر سعة رحمته برزق سكان مكة كلهم مؤمنهم وكافرهم»[٣].

ومعنى (أُمَتّعه): أجعل الرزق له متاعًا، وقليلاً صفة لمصدر محذوف لبعد قوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ والمتاع القليل متاع الدنيا، كما دلت عليه المقابلة: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾، والجملة احتراس من أن يَغْتَرَّ الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذكر العذاب هنا، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتَبِيِّ كشأنها في عطف الجمل من غير التفات إلى كون مصيره إلى العذاب مُتَأَخِّرًا عن تمتعه بالمتاع القليل[٤]، وهذا هو السر البلاغي في استخدام ﴿ثُمَّ﴾ دون بقية حروف العطف.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوف أي بئس المصير النار أو عذابها[٥].

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تذييل، والواو للاعتراض أو للحال، والخبر محذوف هو المخصوص بالذم وتقديره هي[٦]، وهو من الإيجاز بالحذف.

* * * * *

(١) التحرير والتنوير ٧١٦/١.
(٢) تفسير أبي السعود ١٥٩/١.
(٣) التحرير والتنوير ٧١٦/١.
(٤) انظر المرجع السابق ٧١٦/١.
(٥) تفسير أبي السعود ١٥٩/١.
(٦) التحرير والتنوير ٧١٧/١.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

تضمنت الآيات الثلاث ذكر إبراهيم وإسماعيل وهم يبنيان البيت برفع قواعده وهما يدعوان الله تعالىٰ بأن يتقبل منهما عملهما متوسلين إليه بأسمائه وصفاته: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، كما يسألانه عز وجل أن يجعلهما مسلمين له وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله مؤمنة به موحدة له، وأن يعلمهما مناسك حج بيته العتيق، كما سألاه عز وجل أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم، وقد استجاب الله تعالىٰ دعاءهما فبعث في ذريتهما من أولاده إسماعيل إمام المسلمين نبينا محمد **صلى الله عليه وسلم** وقد قرر هذا **صلى الله عليه وسلم** بقوله: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى عليهم جميعًا السلام»[١].

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي لاستحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان[٢]، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل.

قال أبو السعود: «وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة»[٣].

ولم يقل يرفع قواعد البيت؛ لأن في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام من تفخيم الشأن ما ليس في العبارة الأخرى[٤].

---

(١) أيسر التفاسير ١/١١٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/٧١٧، صفوة التفاسير ١/٩٥، تفسير الشعراوي ١/٨٠.
(٣) تفسير أبي السعود ١/١٢٤.
(٤) مفاتيح الغيب ٤/٤٢٠.

وقوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مقول قول محذوف يقدر حالاً من يرفع إبراهيم وهذا القول من كلام إبراهيم لأنه الذي يناسبه الدعاء ولذريته؛ لأن إسماعيل كان حينئذ صغيرًا.

وجملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزءي هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل يفيد قصرين، للمبالغة في كمال الوصفين له تعالىٰ بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم، ويجوز أن يكون قصرًا حقيقيًا باعتبار متعلق خاص، أي السميع العليم لدعائنا لا يعلمه غيرك وهذا قصر حقيقي مقيد(١).

وهنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء هي التي أحيت المشهد وردته حاضرًا. فالخبر: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل.

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان: ربنا ... إلخ. إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة، وهذا هو الفارق الكبير إن الحياة في النص لتثبت متحركة حاضرة، وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة ... وذلك هو الإعجاز(٢).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ فائدة تكرير النداء بقوله ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالىٰ، وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٧١٧/١-٧١٩، انظر: مفاتيح الغيب ٤١٦/٤.
(٢) التصوير الفني في القرآن الكريم ٤٨-٤٩.
(٣) التحرير والتنوير ٧٢٠/١.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدل على أن كمال السعادة سعادة العبد في أن يكون مسلمًا لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وأن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه(١).

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ يتعين أن يكون (ومن ذريتنا) (ومسلمة) معمولين لفعل (اجعلنا) بطريق العطف، وهذا دعاء ببقاء دينهما في ذريتهما.

(ومن) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ للتبعيض، ذلك لبعض الذرية جمعًا بين الحرص على حصوله الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أممًا كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء.

وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ سؤال لإرشادهم لكيفية الحج الذي أمر به قبل أمرًا مجملاً(٢).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]

دعا إبراهيم - عليه السلام - الله سبحانه و تعالى ليتم نعمته على ذريته، ويزيد رحمته على عباده، بأن يرسل لهم رسولاً يبلغهم منهج السماء، حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم(٣).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ كرر النداء لأنه عطف غرض آخر في هذا الدعاء، وهو غرض الدعاء بمجيء الرسالة في

(١) مفاتيح الغيب ٤٢٠/٤.
(٢) التحرير والتنوير ٧٢١/١.
(٣) تفسير الشعراوي ٦٠٧/٨.

ذريته لتشريفهم، وحرصًا على تمام هديهم، وإنما قال ﴿ فِيهِمْ ﴾ ولم يقل: لهم لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول رسولاً إليهم فقط، والنداء في قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ ﴾ اعتراض بين جمل الدعوات المتعاطفة، ومظهر هذه الدعوة هو محمد **صلى الله عليه وسلم** فإنه الرسول الذي هو من ذرية إسماعيل وإبراهيم كليهما(١).

ومن الإطناب بالتَّكرار النداء بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ فقد كرر أكثر من مرة بغرض الاستعطاف والتضرع، ولما يحمله لفظ الربوبية من القرب إلى الله والالتجاء إليه.

وجاء الأسلوب الإنشائي في الآيات بغرض الدعاء والتضرع إلى الله، فأسلوب الأمر في قوله: (تقبل، واجعلنا، وأرنا، وتب، وابعث) كله بغرض الدعاء.

والآيات السابقة تدل على مشروعية التوسل إلى الله تعالىٰ في قبول الدعاء، وذلك بأسمائه تعالىٰ وصفاته، ففي هذه الآيات الثلاث توسل إبراهيم وإسماعيل بالجُمل التالية:

١- ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.
٢- ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.
٣- ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

وهي صيغ مبالغة على وزن فعيل وفعال، وفيها أيضًا أن المؤمن البصير في دينه يفعل الخير وهو خائف أن لا يقبل منه فيسأل الله تعالىٰ ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته أن يتقبله منه(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ أنهم بعد أن أتوا بتلك العبادة، مخلصين تضرعوا إلى الله تعالىٰ في قبولها، وعقبوا

(١) التحرير والتنوير ٧٢٢/١.
(٢) انظر: أيسر التفاسير ١١٥/١.

هذا الدعاء بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ كأنه يقول تسمع دعاءنا وتضرعنا، وتعلم ما في قلبنا من الإخلاص وترك الالتفات إلى أحد سواك(١).

وأتى النظم القرآن بلفظي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على صيغة فعيل للمبالغة؛ لأن المقام يقتضي المبالغة في السمع والعلم، لما فيه من الجزاء القائم على أساس العلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المراد من وصف الله تعالىٰ (بالتواب) على وزن فعّال، للمبالغة في قبول التوبة؛ لأن الذين يتوبون إلى الله تعالىٰ يكثر عددهم، فإذا قبل توبة الجميع استحق المبالغة في ذلك.

ولما كان قبول التوبة مع إزالة العقاب يقتضي حصول الثواب، وكان الثواب من جهته نعمة ورحمة، وصف نفسه مع كونه توابًا بأنه رحيم(٢)، على وزن فعيل للمبالغة في رحمته.

واعلم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام لمّا ذكر هذه الدعوات ختمها بالثناء على الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والعزيز: هو القادر الذي لا يغلب، والحكيم هو العالم الذي لا يجهل شيئًا، وإذا كان عالمًا قادرًا كان ما يفعله صوابًا ومبرأ عن العبث والسّفَه، ولولا كونه كذلك لما صح منه إجابة الدعاء ولا بعثة الرسل، ولا إنزال الكتاب(٣).

وأتى اللفظ القرآن بلفظي (عزيز وحكيم) على صيغة فعيل للمبالغة؛ لأن المقام يقتضي المبالغة في القدرة والحكمة.

* * * * *

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ

(١) مفاتيح الغيب ٤١٦/٤ بتصرف.
(٢) المرجع السابق ٣٣/٣ بتصرف.
(٣) مفاتيح الغيب ٤٣٠/٤.

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[إبراهيم: ٣٥-٤١]. الله سبحانه و تعالىٰ حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضوع أنه طلب في دعائه أمورًا:

طلب من الله نعمة الأمان وهو قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ والابتداء بطلب نعمة الأمن في الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

وطلب من الله أن يرزقه التوحيد ويصونه عن الشرك، وهو قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وطلب من الله بعد إسكانه بعض ذريته بوادي مكة، أن يجعل أفئدة من الناس تريدهم وتسرع إليهم، ويرزقهم من الثمرات، وطلب من الله أن يجعله مقيم الصلاة هو وبعض ذريته، وأن يتقبل دعاءه، وطلب منه أيضًا أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب(١).

وهناك مناسبة بين قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وبين قوله تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما، وإعانة ذريتهما بعد موته، ولكنه لم يصرّح بهذا المطلوب، بل قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي أنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا.

ثم قال تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وذلك يدل ظاهرًا على أنهما يبقيان بعد موته، وأنه مشغول القلب بسببهما، فكان هذا الدعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض،

---

(١) التفسير الكبير ٣٥٨/١٨-٣٦١.

وذلك يدل على الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء، قال عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن ربه أنه قال: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ».

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ لما ذكر الدعاء على سبل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أُصرّح[1].

التحليل البلاغي: أفعال الأمر في الآيات الكريمة (أجعل، واجنبني، فاجعل، وأرزقهم، اجعلني، اغفر) قد خرجت عن معناه الأصلي إلى غرض آخر بلاغي وهو الدعاء، وأسلوب الطلب جاء في هذه الآيات على صيغة فعل الأمر.

وورود النداء محذوف الأداة، وهذا النداء صادر من إبراهيم عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى ولذلك حذف الأداة، للدلالة على قرب الله تعالى منا، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ ﴾ فتصدير الجملة بالنداء لإظهار التضرع لله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي كُنَّ سببًا في إضلالهم، وصدر الجملة بالنداء إظهارًا للاعتناء به، ورغبة في استجابته[2]، واستعطافًا لربه تعالى[3].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ تصدير العبارة بالنداء رغبة في الإجابة، وإظهارًا للتذلل والالتجاء إليه تعالى[4]، وقوله: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ تكرير النداء

(١) التفسير الكبير ٣٦٢/١٨ بتصرف.
(٢) تفسير القاسمي ٣٧٣٣/١٠، روح المعاني ٢٣٥/١٣.
(٣) البحر المحيط ٤٣٠/٥.
(٤) المرجع السابق ٤٣١/٥، روح المعاني ٢٣٦/١٣.

وتوسطه؛ لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنها عماد الدين؛ ولذا خصّها بالذكر من بين سائر شعائره[1].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُ﴾ [آية ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [آية ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [آية ٤١]، كرر النداء للتضرع والالتجاء[2] إلى الله سبحانه و تعالى، ودعاؤه بتقبل دعائه ضراعة بعد ضراعة[3].

ونقرأ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي مكة دعا إبراهيم عليه السلام له بالأمن من الخراب ومن الخوف لمن التجأ إليه حيث وصف البلد بالأمن، وهو صفة لأهله، أي ذا أمن لأن الأمن في الحقيقة أهل البلد، ويجوز أن يكون الإسناد مجازيًا من إسناد ما للحال إلى المحل كنهر جار، فقد أسند (آمنا) وهو اسم فاعل وصف فيه معنى الفعل إلى (البلد) على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، وحقيقته بلد آمنًا أهله فيه، مبالغة في كمال نعمة الأمن التي تفضل بها الله على سكان حرمه.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي تسببن لهم في الضلال، فإسناد الإضلال إليهم مجازي؛ لأنهم جماد لا يعقل منهم ذلك[4]، فإسناد الإضلال إلى الأصنام مجاز عقلي علاقته السببية؛ لأن الأصنام هي سبب إضلال الناس بعبادتهم لها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ وَإِذۡ ﴾ فهو اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل

---

(١) تفسير القاسمي ٣٧٤/١٠، روح المعاني ٢٣٦/١٣.
(٢) البحر المحيط ٤٣٣/٥.
(٣) التحرير والتنوير ٢٤٤/١٣.
(٤) انظر: حاشية الشهاب ٢٧١/٥، روح المعاني ٢٣٥/١٣.

محذوف شائع الحذف أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجب من شأن المشركين(١).

وكلمة ﴿رَبِّ﴾ منادى محذوف منه حرف النداء، مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة(٢)، وأصله ربي، حذفت ياء المتكلم تخفيفًا، لغرض الإيجاز.

و﴿ٱلۡبَلَدَ﴾: المكان المعين من الأرض ويطلق على القرية، وفيه إطناب بالإيضاح بعد الإبهام، فحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ أو هو حوالة على ما في علم العرب من أنه مكة، والتعريف هنا للعهد لأنه معهود الحضور، والبلد بدل من اسم الإشارة.

وأراد (ببنيه) أبناء صلبه، وهو يومئذ إسماعيل وإسحاق، فهو استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جمع نسله تعميمًا في الخبر فاستجيب له في البعض(٣).

وقد أتى بالمسند إليه عَلَمًا في الآية قصدًا إلى إحضار مسماه بعينه وشخصه في ذهن السامع باسمه الخاص، ومنه أيضًا تعظيم وتفخيم لشأن سيدنا إبراهيم عليه السلام كما أن العلم فيه إيماء لتذكر ما قاله إبراهيم عليه السلام بقصد الدعاء لمكة بالأمن والرزق الكثير.

وتنكير المفعول به الثاني ﴿ءَامِنًا﴾ مبالغة في تعظيم صفة الأمن، أي أمنًا لا حدود له.

وعطفت جملة ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ على جملة ﴿ٱجۡعَلۡ﴾ فالجملتان إنشائيتان من حيث اللفظ والمعنى، ولا يوجد مانع من العطف، وعطف قوله تعالى: ﴿وَبَنِيَّ﴾ على ياء المتكلم في قوله ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ من عطف المفردات.

* * * * *

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٣٨.
(٢) إعراب القرآن للدرويش ٥/١٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٣/٢٣٨.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]

جاء المسند إليه ضمير الغائب (هن) وذلك لتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. فالضمير يعود على الأصنام وذلك لتحقيرها وتنزيل شأنها. وأما ضمير الغائب في قوله ﴿فَإِنَّهُ﴾ فقد تقدم ذكره، فهو يعود على قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أي على من اتبعه؛ لذلك جاء بالمسند إليه ضمير الغائب.

وإعادة النداء في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ لإنشاء التحسر على ذلك(١)، أي الأصنام كن سببًا في إضلالهم، كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرتهم، إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى(٢)، وتنكير المفعول به ﴿كَثِيرًا﴾ للتكثير؛ لأن ناسًا كثيرون ضلوا بسبب الأصنام.

وعطف جملة ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ على جملة ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ فالجملتان خبريتان لفظًا ومعنى، وفصلت جملة ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ عن جملة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؛ لأن جملة ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ تعليل لدعائه عليه السلام وإنما صدره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به، ورغبته في استجابته؛ ولذلك فصلت.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي بعضي، قاله عليه السلام مبالغة في بيان اختصاصه به، أو متصل بي لا ينفك عني في أمر الدين(٣)، و(من) في قوله: ﴿مِنِّي﴾ اتصالية، وأصلها التبعيض المجازي(٤)، أي فإنه متصل بي اتصال البعض بكله، (فمن) أفادت معاني كثيرة على سبيل الإيجاز، كما يوجد طباق إيجاب بين قوله ﴿تَبِعَنِي﴾ و﴿عَصَانِي﴾.

* * * * *

(١) التحرير والتنوير ٢٣٩/١٣.
(٢) تفسير القاسمي ٣٧٣٣/١٠.
(٣) تفسير أبي السعود ٣٠/٣، انظر: الكشاف ٤٣٤/٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢٣٩/١٣.

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٨].

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ جملة مستأنفة لابتداء دعاء آخر، وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع، وفي كون النداء تأكيدًا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله.

وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافًا لسابقيه؛ لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه.

وتوسيط النداء بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾ للاهتمام بمقدمة الدعاء، زيادة في الضراعة وتهيأ بذلك أن يفرغ عليه الدعاء لهم، بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم(١).

فقوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بمعنى بعض، وهي في تأويل المفعول به، أي أسكنت بعض ذريتي(٢)، ويجوز أن يكون المفعول محذوفًا والجار والمجرور صفته سدت مسده، أي أسكنت ذرية من ذريتي(٣).

والغرض من حذف المفعول به الاختصار، لوجود قرينة حالية تفهم من سياق الآية؛ لأن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي ناسًا أو فريقًا(٤)، أو ذرية وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولد له فإن إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لإسكانهم(٥).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٣/٢٣٩-٢٤٠.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٣/١٣٠، روح المعاني ١٣/٢٣٦.
(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٣/١٣٠، روح المعاني ٣/٢٣٦، التبيان في إعراب القرآن ٧٧١.
(٤) انظر: البرهان ٣/١٦٤.
(٥) تفسير أبي السعود ٣/١٣٠.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ ﴾ جاء المسند إليه معرفًا بضمير المتكلم، رغبة في الإجابة والالتجاء إليه تعالى، وجاء بالمسند إليه ضمير الغائب لكون المقام له في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ولتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ [آية ٣٧]، فالضمير يعود على الذرية، وفي ذلك تكريم لهذه الذرية فهي تشكر نعمة الله، وذلك بإقامة الصلاة وأداء مراسم العبودية.

وتنكير الجار والمجرور ﴿ بِوَادٍ ﴾ في قوله: ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ للتعظيم والتشريف.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آية ٣٧]، فتنكير لفظ (أفئدة) لتعظيمها وتشريفها بالسكنى بجوار إسماعيل.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [آية ٣٧]، فقوله: ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ بضمير الجمع مكان المثنى؛ لأن الذي أسكنهم من ذريته هو إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، ولكنه عبر عنهم بضمير الجمع دلالة على أن الله أعلمه بأن هذا الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل(١)، فهذا تبشير لإبراهيم عليه السلام تطمينًا لقلبه وتسلية له على تركه فلذة كبده في صحراء شاسعة لا ماء فيها ولا زرع.

وعطفت جملة ﴿وَٱرۡزُقۡهُم﴾ على جملة ﴿ فَٱجۡعَلۡ ﴾ لأن الجملتين إنشائيتان لفظًا ومعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [آية ٣٧]، الأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، عبر به عن جميع البدن؛ لأنه أشرف عضو فيه(٢)، فقوله ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية لأنه أطلق الجزء وأراد الكل، حيث أطلق الفؤاد وأراد البدن كله.

---

(١) البحر المحيط ٤٣٢/٥، روح المعاني ٢٣٨/١٣.
(٢) فتح القدير ١١٢/٣.

وتهوى: مضارع هوى، بفتح الواو: سقط، وأطلق هنا على الإسراع في المشي[١] استعارة، وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهُوِيِّ النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط. والمراد به ههنا المبالغة في صفة الأفئدة بالنزوع إلى المقيمين بذلك المكان، ولو قال سبحانه: "تحن إليهم"، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه: ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه، والهوى يفيد انزعاج الهاوي من مستقره[٢].

و"الهوى" هنا مستعار للإسراع في النزوع إليهم، حيث شبّه الإسراع في المشيء "بالهوى" بجامع السرعة في كل، ثم تنوسي التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير لفظ المشبه به "الهوى" للمشبه "الإسراع" واشتق من "الهوى" "تهوى" بمعنى "تسرع" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة حالية.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ [آية ٣٨]، جاء المسند إليه معرفًا بكاف الخطاب، لتعظيم وتفخيم شأن المخاطب وهو الله تعالى. والالتفات من الخطاب إلى الاسم الجليل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم والإيذان بعمومه.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صفة لشيء، و﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ عطف على ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالوصل للاشتراك في الحكم الإعرابي، والمناسبة ظاهرة فالأرض تقابل السماء.

وجملة ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ تذييل لجملة ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء، ولكونها تذييلاً أظهر فيها اسم الجلالة، ليكون التذييل مستقلاً بنفسه، بمنزلة المثل والكلام الجامع[٣].

* * * *

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٢.
(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٨٤.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٣.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [الآية ٣٩].

فقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ قصر بتعريف الطرفين، قصر حقيقي تحقيقي، قصر الثناء والحمد على الله سبحانه و تعالى، قصر صفة على موصوف.

و﴿عَلَى﴾ في قوله ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ للاستعلاء المجازي بمعنى "مع"، أي وهب ذلك تعليًا على الحالة التي شأنها أن لا تسمح بذلك؛ ولذلك يفسرون ﴿عَلَى﴾ هذه بمعنى "مع" أي مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة(١)، وفي ذلك تصوير أن الكِبَر قد شمله واستولى عليه.

وإنما ذكر حال الكِبَر وتصويره هنا بهذه الصورة لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم وقد صورت ﴿عَلَى﴾ هذا المعنى بإيجاز.

وعطف قوله تعالى: ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ على ﴿ إِسۡمَٰعِيلَ ﴾ وقدم ذكر (إسماعيل) على (إسحاق)؛ لأن (إسماعيل) ولد قبل (إسحاق) فهذا ترتيب تاريخي.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي مجيب الدعاء(٢)، والجملة تعليل لجملة ﴿وَهَبَ﴾، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء، والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة، ليدل على كثرة ذلك(٣).

وإضافة الرب إلى ضمير المتكلم، لمزيد اللطف والعناية والتفخيم لسيدنا إبراهيم عليه السلام ولما فيه من المهابة التي توجب الانقياد والطاعة، فهو الرب المالك المتصرف المستوجب للطاعة والحمد والثناء.

* * * *

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٤٣/١٣، الكشاف ٤٣٦/٢.
(٢) تفسير النسفي ٢٦٤/٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢٤٣/١٣.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [الآية ٤٠]. تصدير العبارة بالنداء للضراعة، و"دعاؤه بتقبل دعائه ضراعة بعد ضراعة"(١).

فقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على ياء المتكلم، أي واجعل بعض ذريتي مقيم الصلاة، وهذا الجار في الحقيقة صفة لذلك المفعول المحذوف، أي وبعضًا من ذريتي(٢)، والغرض من حذف المفعول الاختصار لوجود قرينة حالية تفهم من سياق الآية، والمعنى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما، وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضًا منهم لا يكون مقيم الصلاة(٣)، وحذفت ياء المتكلم في ﴿دُعَآءِ﴾ في قراءة الجمهور تخفيفًا(٤).

* * * * *

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [الآية ٤١]، كرر النداء للتضرع والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى(٥)، وعطف قوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ، وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قوله ﴿لِي﴾، وقدم الدعاء لنفسه بالمغفرة على الدعاء لوالديه وللمؤمنين، فهذا ترتيب للترقي؛ لأن الإنسان لا يقبل منه دعاء إلا إذا كان قريبًا من الله جل وعلا، فيدعو أولاً لنفسه ثم لأقرب الناس إليه ثم لجميع المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [الآية ٤١]، والمعنى يوم يقوم الناس للحساب(٦)، والمراد يقوم أهل الحساب، أسند إلى الحساب ما لأهله مجازًا(٧)،

(١) التحرير والتنوير ٢٤٤/١٣.
(٢) إعراب القرآن للدرويش ٢٠٠/٥.
(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١٣٢/٣.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤٥/١٣.
(٥) البحر المحيط ٤٣٣/٥.
(٦) فتح القدير ١١٣/٣.
(٧) حاشية الشهاب ٢٧٤/٥، روح المعاني ٢٤٤/١٣، الكشاف ٤٣٧/٢.

فهو مجاز مرسل علاقته المحلية، ويجوز أن يكون على حذف المضاف، والتقدير: يقوم أهل الحساب، كما في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ والمراد أهل القرية[1]، والغرض من الحذف في الآية الإيجاز.

والاستعارة أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ والمعنى: يوم يثبت حساب المكلفين في الحشر[2]، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل؛ لأن حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل، والدليل عليه قولهم: «قامت الحرب على ساقها»[3]، إذا قويت واشتدت، شبّه الحساب برجل قائم على الاستعارة المكنية، وأثبت له القيام على التخييل[4]، أي حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو القيام، على طريق الاستعارة التخييلية وهي قرينة الاستعارة المكنية.

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية ٨٣]، لما كان آخر مقاله في الدعوة إلى الدين الحق متضمنًا دعاء بطلب المغفرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، تخلص منه إلى الدعاء بما فيه جَمْعُ الكمال النفساني بالرسالة، وتبليغ دعوة الخلق إلى الله، فإن الحجة التي قام بها في قومه بوحي من الله كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فكان حينئذ في حال قرب من الله، وجهر بذلك في ذلك الجمع؛ لأنه عَقِبَ الانتهاء من أقدس واجب وهو الدعوة

(١) انظر: تفسير أبي السعود ١٣٣/٣، حاشية الشهاب ٢٧٤/٥.
(٢) فتح القدير ١١٣/٣.
(٣) انظر: فتح القدير ١١٣/٣، تفسير أبي السعود ١٣٣/٣، التحرير والتنوير ٢٤٥/١٣، الكشاف ٤٣٧/٢.
(٤) روح المعاني ٢٤٤/١٣، حاشية الشهاب ٢٧٤/٥.

إلى الدين، فهو ابتهال أرجى للقبول كالدعاء عقب الصلوات، وعند إفطار الصائم ودعاء عرفه، والدعاء عند الزحف، وكلها فراغ من عبادات(١).

وقد قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١﴾[الشعراء: ٧٨-٨١] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [٨٢]، الراجعة إلى مواهب حسية بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني:

١- ابتدأ دعائه بأن يعطي حكمًا، والحكم: هو الحكمة والنبوءة، وقد كان إبراهيم حين دعا نبيئًا فلذلك كان السؤال طلب للازدياد.
٢- ثم ارتقى فطلب إلحاقه بالصالحين، ولفظ الصالحين يعم جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين.
٣- ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده، وهذا يتضمن سؤال الدوام والختام على الكمال، وطلب نشر الثناء عليه، وهذا ما تتغذى به الروح من بعد موته؛ لأن الثناء عليه يستعدي دعاء الناس له والصلاة عليه والتسليم.
٤- وسأل أن يكون من المستحقين الجنة خالدًا، فاستعير اسم الورثة إلى أهل الاستحقاق؛ لأن الوارث ينتقل إليه ملك الشيء الموروث بمجرد موت المالك السابق، ولما لم يكن للجنة ما لكون، تعين أن يكون الوارثون المستحقين من وقت تبوؤ أهل الجنة الجنة.
٥- سأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة؛ لأنه أراد أن لا يلحقه يومئذ شيء ينكسر منه خاطره(٢).

(١) التحرير والتنوير ١٤٤/١٩.
(٢) التحرير والتنوير ١٤٦/١٩.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فقوله: ﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾ مجاز مرسل علاقته الآلية[١]. أي ذكرًا صادقًا وثناءً حسنًا فيمن بعدي من الأمم، فاللسان آلة للذكر الحسن، والقرينة في الآخرين[٢].

ويعلق الشيخ الدسوقي: «أي فأطلق اللسان الذي هو اسم لآلة الكلام والذكر على نفس الذكر؛ لأن اللسان آلته»[٣].

يقول ابن يعقوب المغربي: «فقد أطلق اللسان على الذكر لكونه آلة له، فالعلاقة الآلية: والمراد بالآخرين المتأخرون عنه من الأنبياء والأمم، ولاستجابة المولى دعاءه صارت كل أمة بعده تنسب إليه وتقول أبونا إبراهيم»[٤].

واللام في قوله: ﴿لِّي﴾ تقتضي أن الذكر الحسن لأجله فهو ذكره بخير وإضافة لسان إلى صدق من إضافة الموصوف إلى الصفة، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر، أي لسانًا صادقًا. و(الصدق) هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه؛ لأنه يرغب في تحققه ووقوعه في نفس الأمر.

وجملة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ تعليل لطلب المغفرة لأبيه[٥]، وضمير يبعثون راجع إلى العباد المعلوم من المقام[٦]. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح[٧].

---

(١) الآلية: تسمية الشيء باسم آلته، الإيضاح ١٠٧/٣.
(٢) الإيضاح ١٠٧/٣، لباب البيان: د/ محمد شرشر ١٧٥.
(٣) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٤٢/٤.
(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٢/٤.
(٥) التحرير والتنوير ١٤٦/١٩-١٤٨.
(٦) انظر: الكشاف ٢٥٢/٣، التحرير والتنوير ١٤٨/١٩.
(٧) تفسير القرطبي ١١٤/١٣.

قال ابن كثير: «القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب المنافق مريض»(١).

وقد تنوع الأسلوب الإنشائي بين الأمر والنهي بغرض الدعاء والتضرع إلى الله تعالى في قوله: (هب، والحقني، واجعل، واجعلني، واغفر، ولا تخزني).

* * * * *

قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

الأسوة: ما يؤنس به مثل القدوة: لما يقتدى به، يقال: هو أسوتك، أي أنت مثله وهو مثلك، وجمع الأُسْوَةِ أُسًى(٢). والآية تمثل للحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق، والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوةً.

وافتتاح الكلام بكلمتي ﴿ قَدْ كَانَتْ ﴾ لتأكيد الخبر، فإن (قد) مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب، ولومه في الإعراض عن العمل بما تَضَمَّنَهُ الخبر.

وحرف ﴿فِيٓ﴾ مستعار لقوة الملابسة، إذ جعل تلبس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوةً حسنةً بمنزلة تلبس الظرف بالمظروف في شدة التمكن من الوصف(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٤/٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٥١٨/٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ١٤٣/٢٨.

والمراد من قوله: ﴿ بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ ﴾ التبرؤ من مخالطتهم وملابستهم، وعطف عليه ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الأصنام التي تعبدونها من دون الله، والمراد براء من عبادتها.

وجملة ﴿ كَفَرۡنَا بِكُمۡ ﴾ وما عطف عليها بيان لمعنى جملة ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ ﴾ وضمير (بكم) عائد إلى مجموع المخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله، ويفسر الكفر بما يناسب المعطوف عليه والمعطوف، أي كفرنا بجميعكم فكفرهم بالقوم غير كفرهم بما يعبده قومهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الأظهر أن يكون من كلام إبراهيم وقومه، وجملة ﴿ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى آخرها معترضة بين أجزاء القول فهو مما أمر المسلمون أن يأتسوا به، وهو تعليم للمؤمنين أن يصرفوا توجههم إلى الله بإرضائه، ولا يلتفتوا إلى ما لا يرضاه وإن حسبوا أنهم ينتفعون به، فإن رضى الله مقدم على ما دونه.

وتقديم المجرور على هذه الأفعال (عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا، وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا) لإفادة القصر، فقدم الجار والمجرور على الفعل، لإفادة قصر التوكل، والإنابة عليه سبحانه وتعالى.

وإعادة النداء بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ إظهار للتضرع مع كل دعوة ن الدعوات الثلاث[(٢)].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ من دعاء إبراهيم، قال ابن عباس: «لا تسلط علينا أعداءنا فيظنوا أنهم على الحق»[(٣)].

وقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾ أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا، بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة.

---

(١) انظر المرجع السابق ١٤٤/٢٨.
(٢) التحرير والتنوير ١٤٧/٢٨.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٥١٩/٢٩.

وعطفت هذه الآية على ما قبلها؛ وسبب الوصل هو: التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الإنشائية لفظًا ومعنى، والمناسبة بينهما ظاهرة، فالغرض فيهما هو الدعاء والتضرع إلى الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ تعليل للدعوات كلها، فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة العزيز، إذ مثله يعامل بمثل ذلك، وطلب أن يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة الحكيم، وكذلك طلب المغرفة؛ لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا يجعلهم فتنة للكافرين، وأن يغفر لهم، رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم، لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه(1).

وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ على وزن فعيل: للمبالغة في صفة العزيز وصفة الحكيم التي يقتضيها المقام.

٣- ?عا? **يوسف** عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

القائل يوسف عليه السلام: أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة(2).

وقوله: ﴿ رَبِّ ﴾ إيجاز بحذف حرف النداء، والتقدير (يا رب)، و﴿ مِنَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ مِنَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ و﴿ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ للتبعيض؛ لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل(3).

وقوله تعالى: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ نصب على النعت للنداء، وهو رب، وهو نداء مضاف؛ والتقدير: يا رب! ويجوز أن يكون نداء ثانيًا.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٩/٢٨.

(٢) التحرير والتنوير ٥٩/١٣.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٣٠٨/٤، الكشاف ٣٩٤/٢، مفاتيح الغيب ١٥٩/١٧.

والفاطر: الخالق؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أي خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق(1).

فقوله: ﴿ فَاطِرَ ﴾ إيجاز بحذف حرف النداء والتقدير (يا فاطر) وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء، وأشار بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ إلى النعمة العظمى وهي نعمة الدين الحق.

والإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقًا، أي مُدْرِكًامن سبقه في السير واطلق هنا مجازًا على الْمَزِيدِ في عِدَادَ قَوْمٍ، والصالحون: المتصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة، وأراد بهم الأنبياء(2)، فقوله: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ كناية عن الأنبياء.

وعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكي عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»، فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدّم عليه الثناء وهو قوله: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يوسف: ١٠١]، ثم ذكر عقيبة الدعاء وهو قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(3)، وأسلوب الأمر ﴿تَوَفَّنِي، وَأَلۡحِقۡنِي﴾ الغرض منه كما سبق هو الدعاء والتضرع إلى الله.

٤- ?عا??يو ?عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]

---

(١) تفسير القرطبي ٢٧٠/٩، انظر: مفاتيح الغيب ١٦٠/١٧، تفسير أبي السعود ٣٠٨/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٦٠/١٣.

(٣) مفاتيح الغيب ١٦١/١٧.

أي أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب، فاستجاب الله دعاءه وتضرعه، وأزال ما أصابه من ضر وبلاء، وأعطاه أهله في الدنيا، ورزقه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع، وذلك من أجل رحمته إياه، وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر(١).

قال القرطبي: «أي وتذكيرًا للعُبَّاد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه»(٢).

والمس: «الإصابة الخفيفة، والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حلَّ به من الضُّرِّ كالمسِّ الخفيف».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ التعريض بطلب كشف الضر عنه بدون سؤال، فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه بالأرحمية تعْريضًا»(٣).

ولكون ثناء أيوب تعريضًا بالدعاء فرَّع عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾، والسين والتاء للمبالغة في الإجابة، أي استجبنا دعوته العُرْضيَّة بإثر كلامه وكشفنا ما به من ضُرٍّ، إشارة إلى سرعة كشف الضر، والتعقيب في كلِّ شيء بحسبه(٤).

وقوله: ﴿فَكَشَفۡنَا﴾ كلمة الكشف هنا تعطي معنى الإزالة السريعة للضر، والكشف مستعار للإزلة، شبّه إزالة الأمراض والأضرار المتمكنة،

---

(١) صفوة التفاسير ٢٧٢/١٧ بتصرف، انظر: مفاتيح الغيب ١٧٥/٢٢.
(٢) القرطبي ٣٢٧/١١.
(٣) التحرير والتنوير ١٢٦/١٧-١٢٧، انظر: تفسير أبي السعود ٨١/٦، انظر: الكشاف ١٠٣/٣.
(٤) التحرير والتنوير ١٢٧/١٧.

بإزالة الغطاء عن الشيء، بجامع السرعة في ذهاب الشيء في كل، ثم تنوسي التشبيه، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق منه (كشف) بمعنى (أزال) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومن الإطناب: الإيضاح بعد الإبهام، في قوله تعالى: ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ فالموصول: (ما) «مقصود منه الإبهام، ثم تفسيره بـ (من) البيانية لقصد تهويل ذلك الضُّرِّ لكثرة أنواعه بحيث يطول عَدُّها»(١). وفي هذا الإبهام من التفخيم والتهويل ما لا يخفى، لما فيه من الإشارة إلى أن تفصيل ذلك الضر يصعب حصره.

وقوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ وصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويها بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل(٢).

وقوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ أي تذكرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة(٣). «والجملة تنبيه للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم، وبما في العابدين من العموم صارت الجملة تذييلاً»(٤).

---

(١) المرجع السابق ١٢٧/١٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٢٨/١٧.
(٣) الكشاف ١٠٣/٣.
(٤) التحرير والتنوير ١٢٨/١٧ بتصرف.

٥- ?عا? يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ *فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

والمعنى: واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت، والنون هو الحوت، نسب إليه لأنه التقمه، حين خرج من بلده مغاضبًا لقومه، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم[١]. (ذا النون): أي صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام[٢].

وذهابه مغاضبًا قيل: خروجه غضبان من قومه لأنهم لم يؤمنوا بم أرسل إليهم به، فالمغاضبة مفاعلة، فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب لأنه غضب غريب، وقيل: يجوز أن يكون مغاضبًا حالاً مرادًا بها التشبيه، أي خرج كالمغاضب[٣].

وقوله: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الظلمات: جمع ظُلمة، أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، وقيل: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مبالغة في شدة الظلمة[٤].

وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ «تقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كَنَّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كل شيء»[٥].

(١) انظر: صفوة التفاسير ٢٧٢/١٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٨٢/٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٣٠/١٧ بتصرف.
(٤) المرجع السابق ١٣٢/١٧ بتصرف، الكشاف ١٠٤/٣.
(٥) التحرير والتنوير ١٣٢/١٧.

ومن الإطناب بالاعتراض قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ «أي أنزهك تنزيهًا لائقًا بك من أن يعجزك شيء، أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب»(١).

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ مبالغة في اعترافه بظلم نفسه، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ الاستجابة مبالغة في الإجابة، وهي إجابة توبته مما فرط منه، وجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ تذييل، والإشارة بـ (كذلك) إلى الإنجاء الذي أنجى به يونس، أي مثل ذلك الإنجاء نُنْجِي المؤمنين(٢).

٦- ?عا?سليما?عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

سياق الآية يتحدث عن سيدنا سليمان، عندما سمع كلام النملة(٣)، فتبسم سرورًا بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، وقال رب ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليَّ وعلى أبويَّ، ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك، والذي تحبه وترضاه، وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين(٤).

الأسلوب الإنشائي في قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ، وَأَدۡخِلۡنِي﴾ أمر الغرض منه الدعاء، وقوله: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ﴾ عطف على ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾، والإدخال في العباد الصالحين

(١) تفسير أبي السعود ٨٢/٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٣١/٧-١٣٣ بتصرف.
(٣) قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ [لنمل: ١٨]
(٤) صفوة التفاسير ٤٠٥/١١.

مستعار لجعله واحدًا منهم، فشبّه إلحاقه بهم في الصلاح بإدخاله عليهم في زمرتهم(١).

٧- ?عا? موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

قال(٢) يا رب اغفر لي إن كان قد بدر مني شيء يخالف منطق الصواب والحق، واغفر لأخي هارون ما صنع، فقد كان يجب عليه أن يأخذ في قتال من عبدوا العجل(٣)، حتى يمنعهم أو ينالوا منه.

والأسلوب الإنشائي في قوله: ﴿ٱغۡفِرۡ، وَأَدۡخِلۡنَا﴾ أمر بغرض الدعاء بالمغفرة والرحمة له ولأخيه، وقد توسل إلى الله تعالى في قبوله بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وجملة: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ «اعتراض تذييلي مقرر لما قبله»(٤).

* * * * *

قال تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]

وقوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ شرع في بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها، ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن، أي (اختار من قومه) بحذر الجار وإيصال الفعل إلى المجرور(٥). فجملة ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ

(١) التحرير والتنوير ١٩/٢٤٤.
(٢) القائل موسى عليه السلام.
(٣) قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].
(٤) التحرير والتنوير ٣/٢٢٥.
(٥) تفسر أبي السعود ٣/٢٧٦، انظر: مفاتيح الغيب ١٣/٢٩٧.

قَوۡمَهُۥ ﴾ إيجاز بالحذف، والمعنى: (واختار موسى من قومه سبعين)، فحذفت كلمة (من) للإيجاز.

وقوله: ﴿ سَبۡعِينَ رَجُلٗا ﴾ مفعولا لاختار أُخِّر عن الثاني (من قومه) للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخَّر[١].

والأسلوب الإنشائي في قوله تعالى: ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ استفهام الغرض منه الاستعطاف. قال المبرد: «هو استفهام استعطاف، أي لا تهلكنا»[٢].

وقوله: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ أي إلا اختيارك[٣]، قال الواحدي رحمه الله: «الكناية في قوله تعالى (هي) عائدة إلى الفتنة، والمعنى: أن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنك أضللت بها قومًا فافتتنوا، وعصمت قومًا عنها فثبتوا على الحق، ثم أكد بيان أن الكل من الله تعالى، فقال: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ ﴾»[٤].

قال ابن عاشور: «والخبر في قوله: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ ﴾ مستعمل في إنشاء التمجيد بِسِعَةِ العلم والقدرة، والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم، وليس مستعملاً في الاعتذار لقومه، بقرينة قوله: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ ﴾ الذي هو موضع الحال من فتنتك، فالإضلال بها حال من أحوالها»[٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ يفيد الحصر، ومعناه: أنه لا ولي ولا هادي إلا أنت[٦]، وهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، والقصد من جملة: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى، تمهيدًا لمطلب المغفرة

(١) تفسير أبي السعود ٣/٢٧٦.
(٢) مفاتيح الغيب ١٣/٣٠٠، انظر: تفسير أبي السعود ٣/٢٧٧.
(٣) أيسر التفاسير ٢/٨٥.
(٤) مفاتيح الغيب ١٣/٣٠٠، ٣٠١.
(٥) التحرير والتنوير ٩/١٢٦.
(٦) مفاتيح الغيب ١٣/٣٠٢.

والرحمة؛ لأن شأن الولي أن يرحم مولاه وينصره، وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن المغفرة سبب لرحمات كثيرة[1].

عطفت جملة: ﴿وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ على جملة: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ فالجملتان خبريتان لفظًا ومعنى، وعطفت جملة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ الخبرية على ما قبلها ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا﴾ الإنشائية؛ لأنه خبر في معنى طلب المغفرة العظيمة، فعطف على الدعاء، كأنه قيل: فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا؛ لأن الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة[2]، فبين الجملتين اتفاقًا في الإنشائية معنى، وإن اختلفا في اللفظ.

والأسلوب الإنشائي في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ، وَٱرۡحَمۡنَا﴾ أمر الغرض منه الدعاء والتضرع إلى الله، وجاء الطباق بين ﴿تُضِلُّ، وَتَهۡدِي﴾ ليؤكد المعنى ويقويه.

* * * * *

قال تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

هذا من بقية دعاء موسى عليه السلام أي حقق وأثبت لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فنحن تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا[3].

﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مستعار لمعنى العطاء المحقق حصوله، وجملة: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة؛ ولذلك فصلت؛ ولأن موقع حرف التأكيد (إنا) في أولها موقع الاهتمام، فيفيد التعليل والربط ويغني غناء فاء السببية[4].

(١) التحرير والتنوير ١٢٧/٩ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير ١٢٨/٩.
(٣) انظر: صفوة التفاسير ٤٧٥/٩.
(٤) التحرير والتنوير ١٢٨/٩، انظر: تفسير أبي السعود ٢٧٨/٣.

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالىٰ عند دعاء موسى عليه السلام؟، فقيل قال: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الأول، دون أن يقال: (يؤمنون بآياتنا) عطف على ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما عطف هو على ﴿يَتَّقُونَ﴾، لما أشير إليه من القصر بتقديم الجار والمجرور، أي هم بجميع أياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة قصر الإيمان على آيات الله تعالىٰ.

* * * * *

قال تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: ٢٤-٣٦].

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي في قوله تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، عرف أنه كلف أمرًا عظيمًا، وخطبًا جسيمًا، يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه، ويجعله حليمًا، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو خلافة الله في أرضه، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ومقاساة جلائل الخطوب(٢).

وجملة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل؛ لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/٢٧٨.
(٢) الكشاف ٣/٤٧.

وقد رتب موسى الأشياء المسئولة في كلامه فقال: ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾: (والشرح)، حقيقته: تقطيع ظاهر شيء لين، واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره، أو توجب تردده في الإقدام على عمل ما، تشبيهًا بتشريح اللحم بجامع التوسعة(١).

ثم سأله تيسير أمره، أي إزالة الموانع الحافة بما كلف به، والأمر هنا: الشأن، وإضافة (أمر) إلى ضمير المتكلم لإفادة مزيد اختصاصه به وهو أمر الرسالة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾، والتيسير: جعل الشيء يسيرًا.

ثم سأل سلامة آله التبليغ، وهو اللسان بأن يرزقه فصاحة التعبير، والمقدرة على أداء مراده، بأوضح عبارة، فشبّه حبسة اللسان بالعقدة في الحبل، أو الخيط ونحوهما، لأنها تمنع سرعة استعماله، والعقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر منه، أطلقت على عسر النطق بالكلام، أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة، لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة مصرحة، ويقال لها حبسة(٢).

فقد شبّه حبسة اللسان بالعقدة، بجامع عدم السرعة في استعمال الشيء، ثم استعير لفظ العقدة لحبسة اللسان، على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة إسناد العقدة إلى اللسان، وقوله تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ﴾ يلائم المشبه به، ومن ثم فالاستعارة مرشحة.

وزيادة كلمة ﴿ لِي ﴾ مع انتظام الكلام بدونها، تأكيد لطلب الشرح والتيسير، بإبهام الشروح والميسّر أولاً، وتفسيرهما ثانيًا(٣).

وزيادة ﴿ لِي ﴾ بعد ﴿ ٱشۡرَحۡ ﴾ وبعد ﴿ وَيَسِّرۡ﴾ إطناب بالإيضاح بعد الإبهام، وهو لتفخيم الأمر وتعظيمه، فقوله: ﴿ ٱشۡرَحۡ لِي ﴾ يفيد طلب شرح

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٠/١٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢١٠/١٦، ٢١٤.
(٣) تفسير أبي السعود ١٢/٦، انظر: التحرير والتنوير ٢١٣/١٦.

لشيء ما له[1]، وقوله ﴿صَدۡرِي﴾ يفيد تفسيره وبيانه، وكذلك قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ والمقام مقتضٍ للتأكيد، للإرسال[2] المؤذن بتلقي المكاره والشدائد[3]، وفي تقديمها وتكريرها[4] إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبَيْن، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به[5].

وتنكير ﴿عُقۡدَةٗ﴾ للتعظيم، أي عقدة شديدة، ومن لساني صفة لعقدة، وعدل عن أن يقول: عقدة لساني، بالإضافة ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة[6].

وقوله: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ كلاهما على صيغة الدعاء[7]، أي احكم به قوتي واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي[8].

وعلل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبحا الله كثيرًا، ويذكرا الله كثيرًا[9]، قال تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

وقوله ﴿كَثِيرٗا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: (تسبيحًا كثيرًا) [10]، وقيل: ﴿كَثِيرٗا﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف[1]، أي تنزهك عما

---

(١) لأن تقدير الكلام اشرحي شيئًا لي.
(٢) أي في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.
(٣) الإيضاح ٢/٩٩.
(٤) كلمة (لي).
(٥) تفسير أبي السعود ٦/١٢.
(٦) التحرير والتنوير ١٦/٢١٤.
(٧) على قراءة الجمهور بصيغة الأمر في فعلي (اشدد، وأشركه)، التحرير والتنوير ١٦/٢١٤.
(٨) تفسير أبي السعود ٦/١٣.
(٩) التحرير والتنوير ١٦/٢١٤.
(١٠) تفسير ابن عطية ٤/٤٣.

عما لا يليق بك من الصفات والأفعال، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال[٢].

وقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وعد له بالإجابة، وتصديق له فيما توسمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه[٣]. وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب، إثر تشريفه بشرف قبول الدعاء[٤].

* * * * *

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

القائل موسى عليه السلام قال: إني ظلمت نفسي بقتل النفس[٥]، فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي، فغفر له، إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد، الواسع الرحمة لهم[٦].

وأسلوب الأمر في قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ لغرض الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ «(الفاء) للتعقيب، أي استجاب استغفاره فعجّل له بالمغفرة»[٧].

---

(١) تفسير أبي السعود ١٣/٦، وانظر: تفسير القرطبي ١٩٤/١١.
(٢) تفسير أبي السعود ١٣/٦.
(٣) التحرير والتنوير ٢١٤/١٦.
(٤) تفسير أبي السعود ١٤/٦.
(٥) قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].
(٦) صفوة التفاسير ٤٢٧/٢٠، انظر: تفسير أبي السعود ٧/٧.
(٧) التحرير والتنوير ٩١/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على صيغة فعول، فعيل، للمبالغة في مغفرته ورحمته بالعباد.

* * * * *

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

أي فخرج من مصر خائفًا على نفسه، يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم – والمراد بهم فرعون وملؤُه[(١)].

والترقب: حقيقته الانتظار، وهو مشتق من رقب إذا نظر أحوال شيء، ومنه سمي المكان المرتفع مَرْقَبةً ومُرْتَقَبًا، وهو هنا مستعار للحذر[(٢)].

شبّه حذر موسى عليه السلام بالترقب بجامع الانتظار في كل منهما، ثم استيعر لفظ المشبّه به، وهو الترقب للمشبه، ثم اشتق منه (يترقب) بمعنى (يحذر) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومفردة (يترقب) ترسم هيئة الحَذِرِ المتلفِّت، فترسم الموضوع بظله الذي يلقيه في الخيال، وتستدعي صورة مدلولها الحسي، وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

وجملة ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ لأن ترقُبه يشتمل على الدعاء إلى الله بأن ينجيه[(٣)].

* * * * *

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

---

(١) صفوة التفاسير ٢٠/٤٣٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢٠/٩٦.
(٣) المرجع السابق ٢٠/٩٦.

أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما، ثم تنحى جانبًا فجلس تحت ظل شجرة ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ أي إني يا رب محتاجٌ إلى فضلك وإحسانك[1].

والفاء في قوله ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ تفيد السرعة والتعقيب، قال ابن عاشور: «واقتران ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ بالفاء يؤذن بأنه بادر فسقى لهن، وذلك بفور وروده».

والتَّوَلِّي: الرُّجُوعُ على طريقه، وذلك يفيد أَنَّهُ كان جالسًا من قبل في ظلٍّ فرجع إليه. ويظهَرُ أَنَّ تَوَلَّى مُرَادِفُ (وَلَّى) ولكن زيادة المبنى من شأنها أن تقتضي زيادة المعنى فيكون تولى أشد من (وَلَّى)[2].

وقد أعقب إيواءهُ إلى الظِّلِّ بمناجاته ربَّهُ إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء.

والفقير: المحتاج، فقوله: ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ شكرٌ على نعم سلفت، وقوله: ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ ثناء على الله بأنه معطي الخير[3]، وقوله: ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ دعاء يفيد الاستعطاف والترحم[4]، والخير: ما فيه نفع وملاءمةٌ لمن يتعلق هو به، فمنه خير الدنيا، ومنه خيرُ الآخرة الذي قد يُرى في صورة مشتقةٍ، فإن العبرة بالعواقب، وقد أراد النوعين، كما يرمز إلى ذلك التعبير، عن إيتائه الخير بفعل أنزلت المشعر برفعه المعطي، وأول ذلك إيتاء الحكمة والعلم.

و(ما) في قوله ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ موصولة كما يقضتيه فعل المُضيِّ في قوله أنزلت؛ لأن الشيء الذي أنزل فيما مضى صار معروفًا غير نكرة، فقوله ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ﴾ بمنزلة المعرف بلام الجنس؛ لتلائم قوله فقير، أي فقير لذلك النوع

---

(١) صفوة التفاسير ٤٣٠/٢٠.
(٢) التحرير والتنوير ٤٢/٢٠.
(٣) المرجع السابق ٤٢/٢٠.
(٤) انظر: صفوة التفاسير ٤٣٥/٢٠.

من الخير، أي لأمثاله، وأحسن خير للغريب وجود مأوًى له يطعمُ فيه ويبيت، وزوجةٌ يأنسُ إليها ويسْكُنُ.

فكان استجابةُ الله له بأن ألْهَمَ شُعَيبًا أن يرسل وراءهُ لِيُنْزِلَهُ عنده ويزَّوِجَهُ بنتهُ، كما اشْعَرتْ بذلك فاء التَّعقيب في قوله ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾[1] [القصص: ٢٥].

?عا? قو? موسى:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

والمعنى: قال موسى لقومه لما رأي تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته، فاعتمدوا عليه وحده فإنه يكفيكم كل شر وضر، إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه، فأجابوا قائلين: توكلنا عليه، ولا نلتفت إلى أحد سواه[2].

ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء، فطلبوا من الله تعالىٰ شيئين: الأول: أن قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أسلوب النهي في قوله ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ الغرض منه الدعاء، والمعنى لا تسلّطهم علينا حتى يعذبونا ويفتتنوا بنا فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

الثاني: أسلوب الأمر في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الغرض منه الدعاء، والمعنى: «خلّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٤٢-٤٣.
(٢) صفوة التفاسير ١١/٥٩٤.

فرعون وأنصاره الجاحدين»[1]، وهذا حسن توسل منهم إذ قالوا ﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ فتوسلوا إلى الله برحمته ليستجيب دعاءهم[2].

فتقديم المجرور على متعلقه في قوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ لإفادة القصر، قصر التوكل عليه - سبحانه - لا على غيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قصر بتقديم الجار والمجرور، حيث قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالىٰ، لا على غيره.

قال ابن عاشور: «وقد كان صادق إيمانهم، مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيهم، مسرعًا بهم إلى التجرد عن التخوف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجردهم عن التوكل على غير الله تعالىٰ»[3].

وعطفت جملة ﴿فَقَالُواْ﴾ بالفاء ليعقب ردهم على موسى بسرعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة، هو أن لا يجعلهم سبب فتنة، فتعدية فعل تجعلنا إلى ضميرهم المخبر عنه بفتنة تعدية على طريق المجاز العقلي، لعلاقة السببية، وليس الخبر بفتنة من الإخبار بالمصدر، إذ لا يفرضون أن يكونوا فاتنين، ولا يسمح المقام بأنهم أرادوا لا تجعلنا مفتونين للقوم الظالمين[4].

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٢٥/١٦ بتصرف.
(٢) أيسر التفاسير ٣٠٢/١.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦٣/١١.
(٤) المرجع السابق ٢٦٤/١١ بتصرف.

٨- ?عا??كريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٧-٣٨].

قوله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ إن حملناه على المكان فهو جائز، أي في ذلك المكان الذي كان قاعدًا فيه عند مريم عليها السلام، وشاهد تلك الكرامات(١)، دعا ربه، وإن حملناه على الزمان فهو أيضًا جائز، يعني أنه دعا بهذا الدعاء عند أمر عرفه في ذلك الوقت له تعلق بهذا الدعاء(٢).

قال الزمخشري: «﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت، فقد يستعار: هنا، وثَمّة، وحيث للزمان»(٣).

﴿قَالَ﴾ تفسير للدعاء وبيان لكيفيته لا محل له من الإعراب(٤)، وقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾، أسلوب الأمر ﴿هَبۡ﴾ الغرض منه الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، والمعنى أعطني من محض قدرتك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ليس المراد منه أن يسمع صوت الدعاء فذلك معلوم، بل المراد منه أن يجيب دعاءه، ولا يخيب رجاءه(٥)، وقوله: ﴿سَمِيعُ﴾ على صيغة (فعيل) للمبالغة في سرعة استجابة الدعاء.

* * * * *

(١) التحرير والتنوير ٢٣٨/٣ بتصرف، مفاتيح الغيب ١٩٢/٧.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩٢/٧.
(٣) الكشاف ٢٧٥/١-٢٧٦، تفسير أبي السعود ٣١/٢.
(٤) تفسير أبي السعود ٣١/٢.
(٥) مفاتيح الغيب ١٩٤/٧.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ المنادي جبريل، وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له؛ لأنه رئيسهم، أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائمًا في الصلاة، وبشّره بغلام اسمه يحي[١].

والفاء في قوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ للتعقيب، أي استجيبت دعوته للوقت، وقوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقرر لما أفادته الفاء من السرعة بحصول البشارة عقيب الدعاء[٢].

ومن الإيجاز بحذف الصفة، قوله: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ «من لابتداء الغاية مجازًا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة، أي بكلمة كائنة منه تعالى»[٣].

* * * * *

قال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا، حين دعا ربه أن يرزقه ولدًا يرثه ولا يدعه وحيدًا بلا وارث، ثم ردّ أمره إلى الله مستسلمًا فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٤].

(١) صفوة التفاسير ١٣/١٩٩-٢٠٠.
(٢) التحرير والتنوير ٣/٢٣٩، تفسير أبي السعود ٢/٣٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٢/٣٢.
(٤) الكشاف ٣/١٠٤ بتصرف.

وجملة ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ مبينة لجملة نادى ربه، وأطلق الفرد على من لا ولد له، تشبيهًا له بالمنفرد الذي لا قرين له(١).

وأسلوب النهي في قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي﴾ الغرض منه الدعاء والتضرع، وجملة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحق، فاقضي عَلَيَّ من صفتك العَليَّة شيئًا(٢).

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ ورزقناه ولدًا اسمه يحيى.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ... إلخ﴾ جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدمة في الثناء على الأنبياء المذكورين(٣)، وما أوتوه من النصر، واستجابة الدعوات، والإنجاء من كيد الأعداء، وما تبع ذلك.

وأفاد فعل (الكون) أن ذلك كان دَأْبَهُمْ، والمسارعة: مستعارة للحرص وصرف الهمَّة والجدِّ للخيرات، أي لفعلها، تشبيهًا للمداومة والاهتمام بمسارعة السائر إلى المكان المقصود الجاد في مسالكه(٤)، فالمسارعة: مستعارة للحرص والاهتمام، واشتق منها "يسارعون" بمعنى يحرصون ويداومون على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يبادرون في وجوه الخيرات، مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (لي) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾(٥) [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٥/١٧.
(٢) المرجع السابق ١٣٥/١٧.
(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٨٣/٦.
(٤) التحرير والتنوير ١٣٦/١٧.
(٥) تفسير أبي السعود ٨٣/٦.

والرغب والرهب – بفتح ثانيهما – مصدران من (رغب ورهب)، وهما وصف لمصدر (يدعُوننا) لبيان نوع الدعاء بما هو أعمُّ في جنسه[1]، والطباق بينهما يؤكد المعنى ويقويه.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين، أو دائمي الوجل[2].

٩- ?عا?سيدنا ?مدصلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٠]

لما أمره الله تعالى بالشكر الفعلي في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، عطف عليه الأمر بالشكر اللساني، بأن يبتهل إلى الله بسؤال التوفيق في الخروج من مكان والخروج إلى مكان[3].

«وظاهر هذه الآية والأحسن فيها، أن يكون دعاء في أن يحسن الله حالته في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتم عموم معناه رب أصلح لي وردي في كل الأمور وصدري، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه»[4]، فمنهم من قال: المعنى: رب أدخلني مدخل صدق وهو المدينة، وأخرجني مخرج صدق أي افتحها لي، وقيل: المراد وقل رب أدخلني في الصلاة، وأخرجني منها مع الصدق والإخلاص، وقيل: بل المراد رب أدخلني في القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك وأخرجني منها بعد الفراغ منها[5].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٦/١٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٨٣/٦.
(٣) التحرير والتنوير، ١٨٦/١٥.
(٤) تفسير ابن عطيه ٤٨٠/٣.
(٥) تفسير الفخر الرازي ٣٨٩/٢١.

وقيل المعنى: أدخلني القبر إدخالاً مرضيًا، وأخرجني منه عند البعث إخراجًا مرضيًا ملقى بالكرامة، فهو تلقين الدعاء بما وعده من البعث المقرون بالإقامة المعهودة التي لا كرامة فوقها.

وقوله: ﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]. حجة تنصرني على من يخالفني، أو ملكًا عزًا ناصرًا للإسلام مظهرًا له على الكفر، فأجيبت دعوته صلى الله عليه وسلم وأعلمه الله عز وعلا بأنه يعصمه من الناس[١]، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣].

ولما سأل الله النصرة بين الله له أنه أجاب دعاءه فقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ وهو دينه وشرعه، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وهو كل ما سواه من الأديان والشرائع[٢].

والأمر في قوله: ﴿وَقُل﴾ الغرض منه الإرشاد، وقوله: ﴿أَدْخِلْنِي، وَأَخْرِجْنِي، وَٱجْعَل﴾ الغرض منه الدعاء.

وقوله ﴿ ٱلنَّصِيرُ ﴾ مبالغة في الناصر[٣]، فهي صيغة مبالغة على وزن (فعيل) أي سلطانًا ينصرني.

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٧-٩٨].

الظاهر أن يكون المعطوف مواليًا للمعطوف عليه، فيكون قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ متصلاً بقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، فلما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفوض جزاءهم إلى ربه، أمره بالتعوذ من حيلولة الشياطين دون الدفع بالتي

(١) تفسير أبي السعود ١٩٠/٥ بتصرف.
(٢) تفسير الفخر الرازي ٣٨٩/٢١.
(٣) التحرير والتنوير ١٨٦/١٥.

هي أحسن، أي التعوذ من تحريك الشيطان داعية الغضب والانتقام في نفس النبي **صلى الله عليه وسلم**، فيكون الشياطين مستعملاً في حقيقته.

والمراد من ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تصرفاتهم بتحريك القوى التي في نفس الإنسان.

والهز حقيقته: الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازًا بمعنى الأذى بالقول أو بالإشارة(١). وهو هنا على المعنى المجازي في المراد من الشياطين.

قال الزمخشري: «الهمز – النخس. والهمزات جمع المرّة منه، ومنه: مهماز الرائض، والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثالها على المشي»(٢).

وهمز شياطين الجن ظاهر، وأما همز شياطين الإنس فقد كان أذى المشركين للنبي **صلى الله عليه وسلم** ولمزه والتفاخر عليه والكيد له، ومعنى التعوذ من همزهم: التعوذ من آثار ذلك.

وأما قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ فهو تعوذ من قربهم؛ لأنهم إذا اقتربوا منه لحقه أذاهم(٣)، وكرر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة.

* * * * *

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريقة الثناء والدعاء، اللّٰهُمَّ اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، يا أرحم الراحمين، اللّٰهُمَّ آمين(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ١٢١/١٨.
(٢) الكشاف ١٥٧/٣.
(٣) التحرير والتنوير ١٢١/١٨.
(٤) صفورة التفاسير ٣٢٢/٩.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ إيجاز بالحذف. ففي حذف متعلق ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ تفويض الأمر إلى الله في تعين المغفور لهم والمرحومين، والمراد من كانوا من المؤمنين.

ويجوز أن يكون المعنى اغفر لي وارحمني، بقرينة المقام، وأمره بأن يدعو بذلك يتضمن وعدًا بالإجابة، وهذا الكلام مؤذن بانتهاء السورة فهو من براعة المقطع(١).

وجناس الاشتقاق بين قوله: ﴿وَٱرۡحَمۡ وَ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

١٠- ?عا??لملائكة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾. الذكر: ذكر اللسان وهو المناسب لموقع الآية بما قبلها وبعدها(٢)، والمعنى: أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله، وأكثروا ذلك(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾. التسبيح: يجوز أن يكون المأمور به من التسبيح قول: سبحان الله، فيكون عطف وسبحوه على اذكروا الله من عطف الخاص على العام، اهتمامًا بالخاص؛ لأن معنى التسبيح التنزيه عما لا يجوز على

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/١٨.
(٢) التحرير والتنوير ٤٨/٢٢.
(٣) الكشاف ٤٣٠/٣.

الله من النقائص، فهو أكمل من الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد(١)، فهو إطناب بذكر الخاص بعد العام للعناية به.

قال الزمخشري: «والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختصه من بين أنواعه؛ ليبين فضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال، وتبرئته من القبائح»(٢).

والبكرة: أول النهار، والأصيل: العشي، الوقت الذي بعد العصر. وانتصبا على الظرفية التي يتنازعها الفعلان (اذكرو الله ... وسبحوه) والمقصود من البكرة والأصيل إعمار أجزاء النهار بالذكر والتسبيح بقدر المكنة؛ لأن ذكر طرفي الشيء يكون كناية عن استيعابه، كقولهم: المشرق والمغرب، كناية عن الأرض كلها. وقدم البكرة على الأصيل، لأن البكرة أسبق من الأصيل لا محالة(٣).

* * * * *

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

تعليل للأمر بذكر الله، وتسبيحه، بأن ذلك مَجْلَبَةٌ لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه من جنسه، وهو صلاتُهُ وصلاةُ ملائكته، والمعنى أنه يصلي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرًا بكرة وأصيلاً.

والصلاة: الدعاء والذكر بخير، وهي من الله الثناء. وأَمَرَهُ بتوجيه رحمته في الدنيا والآخرة، أي اذكروه ليذكركم كقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله في الحديث القدسيِّ: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٢٢.

(٢) الكشاف ٤٣١/٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤٩/٢٢.

وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين فيكون دعاؤهم مستجابًا عند الله(١).

قال ابن كثير: «والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة، وقيل: الصلاة من الله الرحمةُ، ومن الملائكة: الدعاء والاستغفار»(٢).

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ لإفادة التَّقَوِّي وتحقيق الحكم، والمقصود تحقيق ما تعلق بفعل يُصَلِّي من قول: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وفعل (يصلي) مسندٌ إلى الله وإلى ملائكته؛ لأن حرف العطف يفيد من تشريك المعطوف والمعطوف عليه في العامل، فهو عامل واحد له معمولان، فهو مستعمل في القدر المشترك الصالح لصلاة الله تعالى وصلاة الملائكة الصادق في كُلٍّ بما يليق به بحسب لوزام معنى الصلاة التي تتكيف بالكيفية المناسبة لمن أسندت إليه، ولا حاجة إلى دعوى استعمال المشترك في معنييه على أنه لا مانع عنه على الأصح، ولا إلى دعوى عموم المجاز(٣).

وقوله تعالى: ﴿ يُصَلِّى ﴾ عبر بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والحدوث؛ لإفادة تجدد الصلاة وتكررها.

قال الطاهر بن عاشور: «واجتلاب يُصَلي بصيغة المضارع لإفادة تكرر الصلاة وتجددها كلما تجدَّد الذِّكْرُ والتَّسبيح، أو إفادة تجدُّدِهَا بحسب أسباب أخرى من أعمال المؤمنين وملاحظة إيمانهم»(٤).

وفي إيراد الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ إشارة إلى أنه تعالى معروف عندهم بمضمون الصلة بحسب غالب الاستعمال: فإمَّا لأن المسلمين يعلمون على وجه الإجمال أنهم لا يأتيهم خَيْرٌ إلا من جانب الله تعالى، فكل تفصيل لذلك الإجمال

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤٩/٢٢.
(٢) ابن كثير المختصر ١٠١/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٤٩/٢٢، انظر: تفسير أبي السعود ١٠٧/٧.
(٤) التحرير والتنوير ٤٩/٢٢.

دخل في علمهم، ومنه أنه يصلي عليهم ويأمر ملائكته بذلك، وإمَّا أن يكون قد سبق لهم علم بذلك تفصيلاً من قبل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ متعلقةٌ بيصلّي، أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة[1].

والاستعارة في الآية الكريمة في كلمتي: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ و ٱلنُّورِ﴾ فقد شبّه الضلال بالظلمات بجامع عدم الاهتداء في كل، ثم استعير لفظ الظلمات للضلال على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وشبّه الهدى بالنور بجامع الاهتداء في كل ثم استعير لفظ النور للهدى على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

قال ابن عاشور: «والمراد بالظلمات: الضلالة، وبالنور: الهدى، وبإخراجهم من الظلمات دوام ذلك والاسْتزادةُ منه، لأنهم لما كانوا مؤمنين كانوا قد خرجوا من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]»[2].

وجملة ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ تذييل، فهي مؤكدة لمفهوم ما قبلها، وهو رحمته بالمؤمنين في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾.

ودلّ الإخْبَار عن رحمته بالمؤمنين باتمام فعل كان وخبرها، لما تقتضيه كان من ثبوت ذلك الخبر له تعالى وتحققه وأنه شأن من شؤونه المعروف بها في آيات كثيرة، ورحمته بالمؤمنين أعم من صلاته عليهم؛ لأنها تشملُ إسداء النفع إليهم، وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف[3].

وضع المظهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ولم يقل (وكان بكم رحيمًا) فقوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مظهر وضع موضع المضمر مدحًا

(١) تفسير أبي السعود ١٠٧/٧.
(٢) التحرير والتنوير ٤٩/٢٢.
(٣) المرجع السابق ٤٩/٢٢.

لهم وإشعارًا بعلة الرحمة(١)، وقوله: ﴿رَحِيمًا﴾ على صيغة فعيل للمبالغة في رحمته تعالى بالمؤمنين.

* * * * *

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧-٩].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام – وأولهم وجودًا، وحملهم إياه وحفيفهم حوله (مجاز) عن حفظهم وتدبيرهم له، وكناية عن زلفاهم من ذي العرش جل جلاله ومكانتهم عنده.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التي لا تتناهى(٢)، والباء في ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ للملابسة، أي يسبحون الله تسبيحًا مصاحبًا للحمد، فحذف مفعول يسبحون لدلالة المتعلق به عليه(٣).

قال الزمخشري: «ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟، فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأبان فضل الإيمان»(٤).

---

(١) تفسير أبي السعود ١٠٧/٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٦٧/٧.
(٣) التحرير والتنوير ٨٩/٢٤.
(٤) الكشاف ١١٨/٤.

وصيغة المضارع في ﴿يُسَبِّحُونَ ، وَيُؤْمِنُونَ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ مفيدة لتجدد ذلك وتكَرُّرِهِ(١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول أي يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ على أنه: إما بيان لاستغفارهم، أو حال(٢)، وفيه إيجاز بالحذف، حيث حذف جملة: (يقولون).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ افتتح دعاء الملائكة للمؤمنين بالنداء لأنه أدخل في التضرع، وأرجى للإجابة(٣).

وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم ثناء قبل الدعاء، لتعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدأون دعاءهم بأدب، ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسع كل شيءٍ رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء(٥)، وللمبالغة في عمومها، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا(٦).

وذكر سعة العلم (كناية) عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنين، فهو بمنزلة قول القائل: أنت تعلم أنهم آمنوا بك ووحدوك(٧).

قال ابن عاشور: «وجيء في وصفه تعالى بالرحمة الواسعة، والعلم الواسع بأسلوب التمييز المحول عن النسبة، لما في تركيبه من المبالغة بإسناد السعة إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٩٠/٢٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٦٧/٧، الكشاف ١١٨/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٩٠/٢٤.
(٤) البحر المحيط ٤٥١/٧.
(٥) الكشاف ١١٩/٤.
(٦) تفسير أبي السعود ٢٦٧/٧.
(٧) التحرير والتنوير ٩٠/٢٤.

الذات ظاهرًا، حتى كأن ذاته هي التي وسعت، فذلك إجمال يَسْتَشْرِفُ به السامع إلى ما يرد بعده، فيجيء بعده التَّمييزُ المُبَيِّنُ لنسبة السعة أنها من جانب الرحمة وجانب العلم، وهي فائدة تَمييز النِّسْبة في كلام العرب، لأنَّ للتَّفْصيل بعد الإجمال تمكينًا للصِّفَةِ في النَّفْس، والمراد أن الرحمة والعلم وَسِعَا كُلَّ موجودٍ، الآن، أي في الدنيا وذلك هو سياق الدعاء، فما من موجود في الدنيا إلا وقد نالته قسمة من رحمة الله، سواء في المؤمن والكافر والإنسان والحيوان»[1].

ومن الإيجاز بالحذف، حذف مفعول ﴿فَٱغْفِرْ﴾ أي ذنوب الذين تابوا، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إعادة النداء من أجل الدعاء لزيادة التضرع إلى الله سبحانه و تعالى.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور، التي من جملتها إنجاز الوعد[2]، واقتران هذه الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بها. وصيغة المبالغة فعيل في قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ للمبالغة في قدرته وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي العقوبات؛ لأن جزاء السيئة سيئة مثلها، أو جزاء السيئات على حذف المضاف، وهو تعميم بعد تخصيص[3]، من الإطناب بذكر العام بعد الخاص.

وجملة ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دعاء جامع، إذ السيئات هنا جمع سيِّئة، وهي الحالة أو الفعلة التي تسوء من تعلقت به، صيغت على وزن (فيْعَلَةٍ) للمبالغة في قيام الوصف بالموصوف: (سيِّئ) مثل (قيِّم، وسيِّد)، والمعنى: وقهم من كل ما يسوءهم[4].

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩٠-٩١.
(٢) تفسير أبي السعود ٧/٢٦٨.
(٣) انظر: الكشاف ٤/١١٩، وتفسير أبي السعود ٧/٢٦٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/٩٣ بتصرف.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إذ أشير إلى المذكور من وقاية السيئات، إشارة للتنويه والتعظيم[1]، ووصف الفوز بـ (العظيم) على صيغة (فعيل) للمبالغة في تعظيمه.

والأسلوب الإنشائي في قوله: ﴿فَٱغْفِرْ، وَقِهِمْ، وَأَدْخِلْهُمْ، وَقِهِمُ﴾ فعل الأمر صادر من الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى بغرض الدعاء للمؤمنين.

* * * * *

قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ جملة مستأنفةٌ مُقَرِّرةٌ لمعنى جملة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، ولذلك لم تعطف عليها. أي يكاد السماوات على عظمتهِنَّ يتَشَقَّقْنَ من شدّة تَسخُّرهِنَّ فيما يُسَخِّرهُنَّ الله له عمل لا يخالف ما قَدَّره الله لهنَّ، وقيل: إن المعنى يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهنَّ من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار[2].

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾، قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة: فوق السموات، وهي: العرش، والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى»[3].

وقوله ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يجوز أن يكون ضمير فوقهن عائدًا على السماوات، فيكون المجرور متعلقًا بفعل يتفطّرن، بمعنى أن انشقاقُهنَّ يحصل من أعْلَاهُنَّ، وذلك أبلغ الانشقاق؛ لأنه إذا انشق أعلاهن كان انشقاق ما دونه أولى.

---

(١) المرجع السابق ٩٣/٢٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٩/٢٥.
(٣) الكشاف ١٦٣/٤.

وتكون (مِنْ) زائدة زيادتها مع الظروف لتأكيد الفوقية، فيفيد الظرف استحضار حالة التفطر وحالة موقعه، وقد شبَّه انشقاق السماء بانشقاق الوردة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، والوردة تنشق من اعلاها حين ينفتح برعومها، فيوشك إن هنّ تفطرن أن يَخْرِرن على الأرض، أي يكاد يقع ذلك لما فشا في الأرض من إشراك وفساد(١).

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، عطفت جملة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ على جملة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ لإفادتها تقرير معنى عظمة الله تعالى وجلاله المدلول عليها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، مَرْتَبَةُ واجب الوجود سبحانه وهو أصل التنزيه والحمد، ومَرْتَّبةُ الروحانيات وهي الملائكة وهي واسطة المتصرف القدير ومُفيض الخير في تنفيذ أمره، من تكوين وهُدًى وإفاضة خير على الناس، فهي حين تتلقى من الله أوامره تُسَبِّحهُ وتحمده، وحين تفيض خيرات على عباده تستغفر للذين يتقبلونها تقبل العبيد المؤمنين بربهم؛ ومَرْتَّبةُ البشرية المفضلة بالعقل إذ أكْملُهُ الإيمان وهي المراد بـ ﴿لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(٢).

قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

معنى الآية: أن السموات تكاد يتشققن من عظمة الله وجلاله، والملائكة الأبرار يسبحون الله، ويطلبون الغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٥.
(٢) التحرير والتنوير ٣١/٢٥.
(٣) صفوة التفاسير ١٣٢/٢٥.

نتأمل الفاصلة قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥] فالمعنى: «ألا فانتبهوا أيها القوم أن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم»(١).

فالفاصلة زيادة تقرير لعظمته تعالى، ومتممة لمعنى الآية ومؤكدة لها، وهي تفيد التصدير؛ لأن الفاصلة تقدمت بلفظها في أول الآية.

وتوالت فيها المؤكدات وهي (ألا ، إن ، ضمير الفعل) وصيغة المبالغة ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال القرطبي: «هيَّب وعظَّم جلا وعلا في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء»(٢).

(١) المرجع السابق ١٣٣/٢٥.
(٢) تفسير القرطبي ٥/١٦.

الخاتمة

مما سبق نستطيع أن نتبين، أن الدعاء الذي يقْدُمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، بالإضافة إلى ذلك، إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه، كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل المدعوَّ بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرَّض – بل وصرَّح – بشدة حاجته وضرورته، وفقره ومسكنته.

ونتأمل قول أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فقد جمع أيوب عليه السلام – في هذا الدعاء – بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر إلى ربه، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه.

ودعوة يونس عليه السلام: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، جمعت هذه الدعوة: الإقرار بالتوحيد، وتنزيه الله سبحانه و تعالىٰ عن أن يعجزه شيء، والاعتراف بظلم النفس، فاستجاب الله لدعائه.

وقد جاء الدعاء ضمن أساليب مختلفة منها: الجمل الخبرية، والجمل الإنشائية، بغرض الحث على الدعاء والترغيب فيه والتضرع إلى الله، وأسلوب القصر، والتقديم والتأخير، والحذف للإيجاز، والإظهار في مقام الإضمار، وصيغ المبالغة، والإيجاز والإطناب، والتشبيه، والاستعارة والكناية، والطباق والجناس، ... إلخ من الفنون البلاغية التي تبرز الإعجاز البلاغي في التراكيب والصور.

وفي الختام ... ما أحوجنا جميعًا إلى باب ربنا الرحيم، ورحابه الكريم تفريجًا لكرباتنا، وكشفًا لما أغمنا، وإذهابًا لما أحزننا، كما فعل الأنبياء من قبل، فهم القدوة الحسنة، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤]، فيجب علينا الاتجاه إلى الله، والإخلاص في الدعاء، كما فعل الأنبياء، يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط دار ابن كثير دمشق بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢- أثر الدعاء في كشف المحذور ورد البلاد: د/ محمود موسى الشريف، دار الأندلس للنشر والتوزيع، جدة.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: للعلامة أبي السعود، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤- إعراب القرآن وبيانه: محي الدين الدرويش، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، بيروت.

٥- أيسر التفاسير لكلام العلي القدير: لأبي بكر جابر الجزائري، ط الثالثة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني، ط صبيح، ١٣١٢هـ.

٧- البرهان في علوم القرآن: للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط الأولى، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي.

٨- البحر المحيط: لأبي حيان، ط دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح عبد المتعال الصعيدي، المطبعة النموذجية.

١٠- التبيان في إعراب القرآن: لأبي البقاء العكبري، تحقيق: محمد علي السجاوي، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

١١- التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢م.

١٢- التصوير الفني في القرآن الكريم: سيد قطب، ط دار الشروق.

١٣- التعبير الفني ي القرآن الكريم: د/ بكري شيخ أمين، ط دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٩٩٤م.

١٤- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط الأولى، ١٤١٨هـ، دار حياء التراث العربي، بيروت.

١٥- تفسير الشعراوي: خواطر فضيلة الشيخ محمد الشعراوي، ط دار أخبار اليوم.

١٦- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه.
١٧- تفسير القرآن العظيم: للإمام ابن كثير، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٩هـ.
١٨- تفسير النسفي: لأبي البركات النسفي، ط عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٩- تلخيص البيان في مجازات القرآن: للشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني، ط دار إحياء الكتب العربية الحلبي، ١٩٥٥م القاهرة.
٢٠- جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري، ط الأولى ١٣٢٧هـ، المطبعة الأميرية بولاق.
٢١- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
٢٢- حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص، ط دار الشروق، بيروت، لبنان.
٢٣- دمع السَّحَر في ذكر ومناجاة رب البشر: لخالد أبو صالح، دار الوطن للنشر، الرياض، ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للعلامة الألوسي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥- شأن الدعاء: للحافظ محمد بن محمد الخطابي، تحقيق: أ. أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، ط ١٤٠٤هـ.
٢٦- صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب: الأصل لشمس الدين بن قيم الجوزيه، اختصار: سليم الهلالي، الدمام، دار ابن الجوزي.
٢٧- صفوة التفاسير: لمحمد علي الصابوني، دار الرشيد، سوريا، حلب.
٢٨- عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص، ط دار السرور، بيروت، لبنان.
٢٩- فتح القدير: لمحمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
٣٠- الفوائد: للإمام ابن قيم الجوزيه، بيروت، دار الكتاب العربي.
٣١- الكشاف: للإمام الزمخشري، ط الثانية، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٣هـ- ١٩٥٣م.

٣٢- المحرر الوجيز: لابن عطيه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣٣- مختصر تفسير ابن كثير: تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط السابق ١٤٢٠هـ - ١٩٨١م.
٣٤- مفاتيح الغيب للرازي، ط دار الغد العربي، ط الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٣٥- معاني التراكيب: د/ عبد الفتاح لاشين، ط دار الكتاب الجامعي.
٣٦- مواهب الفتاح: لابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخيص، ط دار السرور، بيروت، لبنان.

قائمة المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة..	٧٢٧
التمهيد	٧٢٩
دعاء نوح عليه السلام..	٧٣١
دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام	٧٣٤
دعاء يوسف عليه السلام	٧٥٧
دعاء أيوب عليه السلام..	٧٥٨
دعاء يونس عليه السلام..	٧٦١
دعاء سليمان عليه السلام...	٧٦٢
دعاء موسى عليه السلام...	٧٦٣
دعاء زكريا عليه السلام...	٧٧٤
دعاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم	٧٧٧
دعاء الملائكة..	٧٨٠
الخاتمة	٧٩٠
المصادر والمراجع	٧٩٢